موقف المماليك من التطورات السياسية في العراق
٨٧٤-٩٢٣ هـ / ١٤٧٠- ١٥١٧ م

علاء محمود خليل قداوي*

تمهيد:

يلاحظ المتتبع للدراسات التاريخية عن السياسة الخارجية للدولة المملوكية الثانية (٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٣٨٢-١٥١٧م) أنها عنيت في الغالب بدراسة العلاقات القائمة بينها وبين العثمانيين ، في حين أغفلت بعض الشئ دراسة موقف المماليك من التطورات السياسية في العراق في الربع الأخير من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ومطلع القرن السادس عشر مع العلم أن تلك الفترة شهدت أحداثاً سياسية مهمة تمثلت بانهيار دولة القرة قوينلو بأحتلال الآق قوينلو بزعامة حسن الطويل العراق وبلاد فارس وأذربيجان ، سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م ، كما شهدت تلك الفترة قيام الدولة الصفوية واكتساحها لبلاد الآق قوينلو ومنها العراق ، خلال المدة (٩٠٨-٩١٤هـ/١٥٠٢-١٥٠٨م) والصراع الصفوي العثماني وهزيمة الصفويين في معركة جالديران (٩٢٠هـ/١٥١٤م) وامتداد النفوذ العثماني في أعقاب هذه المعركة الى جهات شمالي العراق ،ثم دخول بلاد الشام في الطوق العثماني في أعقاب معركة مرج دابق سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م .

ومن هنا تبرز أهمية دراسة موقف المماليك من هذه التطورات لما لموقفهم من أثر جوهري في طبيعة الأحداث السياسية التي شهدتها المنطقة ، وما تمخضت عنه من نتائج سلبية على صعيد مصالحهم الخاصة في نهاية المطاف ، وقد توزعت الدراسة على عدة محاور ، وكما يأتي :

١-موقف المماليك من قيام امارة الآق قوينلو في ديار بكر العليا .

---

* قسم التاريخ /كلية الآداب /جامعة الموصل

٢- المماليك وحسن الطويل .

٣- اضطراب الأحوال في العراق والهجوم المملوكي .

٤- موقف المماليك من الصراع الآق قوينلو - الصفوي .

٥- العلاقات المملوكية الصفوية وانهيار الدولة المملوكية .

أولاً : موقف المماليك من قيام الآق قوينلو في ديار بكر العليا :

الآق قوينلو " ذو الخراف البيض " طائفة من التركمان وصفت بالبايندية لانتسابها الى بايندر أحد أحفاد أوغوز البطل الاسطوري للاتراك ، دفعها الغزو المغولي الى الهجرة من موطنها الأصلي تركستان نحو أذربيجان لتستقر في نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي في ديار بكر العليا جنباً الى جنب مع قبائل تركمانية أخرى (١) .

وكانت بداية نشاطهم السياسي على عهد زعيمهم علاء الدين طور علي بيك الذي خلفه في الحكم أبنه فخر الدين قونلوغ بيك ليعقبه أحمد بيك ثم حفيده قرة عثمان والأخير الذي تولى الزعامة سنة (٧٩١هـ/١٣٨٩م) يعد المؤسس الحقيقي للامارة وقد نعتته المصادر التاريخية بقره يلك أوقره يلوك كناية عن شراسته وبطشه القاسي بأعدائه (٢) .

لقد خدمت الظروف التي عاشها العراق وبلاد الشام في نهاية القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي طموحات قره عثمان ، اذ وضع نفسه لخدمة تيمورلنك في أثناء غزوه للعراق والشام ، وكان يحمل راية تيمور عند غزوه بلاد الشام وقد كافأه تيمور لموقفه هذا وأقره أميراً على ماردين وأمد ومنحه حكم الموصل وسنجار وأربل ، الا أنه عجز عن الاحتفاظ بهذه المناطق، بعد انهيار الحكم التيموري في العراق سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م على يد القرة قوينلو والجلائريين حلفاء المماليك (٣) .

أظهر قره عثمان في السنوات اللاحقة من حكمه طمعاً في الأراضي المملوكية الواقعة في شمال سوريا وأعالي الفرات وشرق الأناضول فصارت هدفاً لغاراته ، ففي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م طرق أبواب مدينة عينتاب فعاث وأحرق أسواقها ولم يتوقف عن نهبها الا بعد أن أخذ من سكانها " مائة الف درهم وأربعين فرساً " فرحل عنها الى البيرة التي قرر أهلها مقاومته فصمدت بوجهه حتى اجبرته على العودة الى بلاده (٤) ، ومما يثير الانتباه أن السلطات المملوكية لم تحرك ساكناً بالرغم من عواقب غاراته على مدنهم وما سببته من أضطراب تجارتهم (٥) .

وعاود قره عثمان بعد عشر سنوات أي سنة ٨٣٢هـ/١٤٢٨م الهجوم على الآراضي المملوكية ، وكانت وجهته هذه المرة مدينة الرها التي احتلها ونهب قلعتها ،وخربت وأسند حكمها لولده هابيل (٦) ، وازاء ذلك كان رد فعل المماليك سريعاً وعنيفاً خاصة بعد أن شعروا بأن الخطر الآق قوينلو بات يهدد مدناً أخرى ، فتمكنوا من طرد الآق قوينلو من الرها وخربت وأسر حاكمها(٧) .

غير أن قره عثمان سرعان ما عاود حصار الرها سنة ٨٣٧هـ/١٤٣٣م بعد أن رفضت السلطات المملوكية اطلاق سراح ولده هابيل ، كما عمد في الوقت نفسه الى اثارة السلطان المملوكي برسباي (٨٢٥-٨٤١هـ/١٤٢٢-١٤٣٧م) ، واظهار عدم احترامه له ، لقد أرسل له هدية احتوت على تسعة أكاديش ودراهم قليلة مضروبة باسمه امعاناً منه – كما يبدو – في اشعار برسباي بالاحتقار ، الأمر الذي دفع السلطان المملوكي الى عدم استقبال الوفد (٨) كما أصدر أوامره بشن حملة عسكرية لنجدة القوة المملوكية المحاصرة في الرها (٩) ، وطلب من حلفائه القره قوينلو حكام العراق وايران الضغط على قرة عثمان والهجوم على اراضي امارته ، فاستجاب اسكندر بن

قره يوسف حاكم القره قوينلو لطلبه فشن هجوماً على أراضي الآق قوينلو مما أضطر قره عثمان الى رفع الحصار عنها ليواجه خصمه اللدود اسكندر الذي تمكن من قتله في معركة نشبت بينهما سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م ويذكر ان اسكندر حز رأس قره عثمان وأرسله الى القاهرة التي احتفلت لمدة ثلاثة ايام ابتهاجاً بهذا الحدث السعيد (١٠).

لم ينه غياب قره عثمان السياسي المخاطر التي كانت يتعرض لها المماليك من القوى التركمانية والتيمورية ، اذ كان اعلان السلطان العثماني مراد الثاني (٨٢٤-٨٤٨هـ/١٤٢١-١٤٤٤م) وزعماء امارة بني قرمان وذلغادر التركمانيتين ، فضلاً عن الآق قوينلو بتبعيتهم لشاهرخ التيموري سنة ٨٣٩هـ/١٤٣٥م (١١) الطامع ببلاد الشام ومصر بمثابة تحالف ضد المماليك .

وبهدف مواجهة هذا التحالف وثق برسباي تحالفهمع اسكندر القره قوينلوي الداخل في صراع مع التيموريين والآق قوينلو ، فأرسل قوة مملوكية كبيرة سنة ٨٤١هـ/١٤٣٧م الى شرق الآناضول لتقوية اسكندر على خصمه ، وما أن وصلت تلك القوى ارزنجان حتى وصلها نبأ وفاة السلطان برسباي ، فأضطرت للرجوع الى الشام (١٢) .

واستمر التنسيق بين المماليك والقره قوينلو في اتخاذ المواقف الايجابية المتبادلة تجاه الآق قوينلو ، اذ بارك المماليك حملة جهانشاه القره قوينلو على ديار بكر والتي كان هدفها تأديب جهانكير الآق قوينلوي بسبب خروجه عن طاعة السلطان المملوكي (١٣) .

ومع بداية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م حدثت متغيرات سياسية أثرت سلباً على علاقة المماليك مع القره قوينلو لمصلحة الآق قوينلو وتمثلت بتنامي قوة العثمانيين وذلك بعد أن تمكنوا من اسقاط الدولة البيزنطينية وفتحهم القسطنطينية سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م ونوجههم شرقاً لاستكمال السيادة على آسيا الصغرى ،

ومما أثار حفيظة المماليك الذين كان لهم نفوذ في هـذه المنطقـة والآق قوينلـو الساعين الى التوسع غربا ، فحدث تقارب بينهما عندما اعلـن حسـن الطويـل الزعيم الآق قوينلوي الجديد تبعيته للسلطان المملوكـي الأشـرف اينـال (١٥) بهدف التصدي للعثمانيين وابعاد أوجه التقارب بين المماليك والقره قوينلـو ، اذ أن حسن الطويل كان يلوح في كل مسعى عسكري يقوم به بأنـه ينـوبُ عـن المماليك في ذلك ، وعلى هذا الاساس فقد عد نفسه نائبا عن المماليك بل ذهـب الى أبعد من ذلك عندما قرر اعلان الخطبة له من على منابر ديار بكر وضـرب السكة باسمه ، وقد قوبلت السفارة بالحفاوة والتكريم دون صدور رد فعل رسـمي على العرش الآق قوينلوي (١٦) .

وفي السنة التي تلتها بعث حسن الطويل بسفارة أخرى ترأستها والدتـه سارة خاتون حظيت كسابقتها بالتكريم (١٧) ، والا أنها لم تحقق أهدافـها فـي كسب المماليك الى جانب ولدها حسن الطويل في صراعه ضد القرة قوينلو .

وعلى مايبدو فأن وقوف المماليك على الحياد في الصراع الناشب بيـن الآق قوينلو والقرة قوينلو كان بمثابة سوء تقدير لهذا الصراع الذي أفسح المجـال للآق قوينلة لتوجيه ضربة حاسمة للقـرة قوينلـة فـي معركـة مـوش سـنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م انهت دولتهم بمقتل جهانشاه(١٨) ، وغيرت سياسـتهم تجـاه المماليك بعد هذا الانتصار من التابع الى الطامح في مناطق نفوذهم ، ولاسـيما في الفرات الاعلى وبلاد الشام ، ولعل ما يعزز هذا الرأي هـو تبـدل العلاقـة السياسية بينهما بعد تلك الأحداث كما سنرى ذلك لاحقا .

ثانيا <u>المماليك وحسن الطويل</u> :

تشكل سنة ٨٧٢هـ/١٤٦٧م نقطة تحول في العلاقات المملوكيـة الآق قوينلوية وذلك بسبب ظهور عاملين الأول توسع امارة الآق قوينلو لتشغل اضافـة الى ديار بكر بلاد فارس وأذربيجان ثم العراق بعد اكتساح حسن الطويـل هـذه

البلاد التي كانت تابعة للقره قوينلو ، والثاني تمكن الطويل من تصفية الدولة التيمورية بعد قضاءه على ابي سعيد التيموري حفيد تيمورلنك وحليف القره قوينلو وذلك سنة ٨٧٣هـ/١٤٦٨م (١٩) .

أن تنامي قوة الآق قوينلو في حدود لاتقارن بما كان عليه وضعها قبل تمكنها من ازالة قوتين سياسيتين كانتا قد لعبتا دورا بارزا خلال الحقبة التي سبقت زوالهما وهما التيمورية والقره قوينلو ، وفشل حسن الطويل في ايجاد منفذ له نحو سواحل البحر المتوسط الشمالية بعد أن تصدى له العثمانيون خلال السنوات السابقة (٢٠) ،فهذا مما أجبره على توجيه تحركاته نحو بلاد الشام خاصة بعد هيمنته على العراق وغياب ما كان يشكله المماليك من عمق ستراتيجي له قبل زوال اعدائه القره قوينلو والتيموريين ، لذا فقد كانت متوقعا أن تظطرب العلاقات الودية بين المماليك وحسن الطويل ، وهذا ما أشار اليه المؤرخ المصري أبن تغرى بردى حين قال أن "كل أحد يحقق (يتوقع) وقوع العداوة بين السلطان وحسن بيك " (٢١) ، وقد فسر أبن أياس المصري سبب ذلك بأن حسن الطويل " قد تزايدت عظمته جدا فخشي السلطان منه في الباطن وأخذ حذره " (٢٢) ، وفسرما يظهره من ولاء للمماليك بانه عين الخداع "(٢٣)، كل ذلك يؤكد أن الطويل أخذ يتعامل مع المماليك كطامع في ممتلكاتهم .

وهذا ما أكدته الاحداث اذ ما أن علم حسن الطويل بالخسائر التي منى بها المماليك امام شاه سوار (٢٤) حاكم ذى لغادر التركمانية (٢٥) خلال الفترة (٨٧٢-٨٧٥هـ/١٤٦٧-١٤٧٠م) حتى بادر من جهته الى شن هجوم على البلاد الحلبية في ربيع الآخر ، ثم كرره في رجب من سنة ٨٧٦-١٤٧٠م (٢٦) وكذلك على مدينة الرها في سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م (٢٧) واستولى على قلعتي كركر وكختا شمالي الشام (٢٨) ، فضلا عن ايعازه لاميري الحج العراقي رستم بك والقاضي احمد بن وجين بأن يجعلا الخطبة باسمه في موسم حج

سنة٨٧٧هـ/١٤٧٢م ، وقد نجح أميرا الحج المذكوران في جعل الخطبة بأسم "الملك العادل حسن الطويل " غير أن أمير مكة محمد بن بركات قبض على رستم وصاحبه وأرسلهما الى القاهرة ، فأمر السلطان قاينباي بايداعهما السجن (٢٩) لأن ما قاما به يعد انتهاكا لمركز المماليك الديني وسيلدتهم على الحجاز .

لم يقف المماليك مكتوفي الأيدي تجاه تحركات حسن الطويل العدوانية ، فقد جرد السلطان قاينباي حملى عسكرية في جمادي الآخرة سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م للتصدي لتحركات الطويل لبلاد الشام الشرقية ، ورغم أن تصادما مباشرا لم يحصل بين الطرفين باستثناء القاء نائب حلب القبض على أربعين جنديا من الآق قوينلو كانوا يستطلعون تحركات المماليك وتم اعدامهم (٣١) ، الا أن المماليك كانوا يفضلون أن يجنح حسن الطويل للسلم لأن أوضاعهم الاقتصادية والسياسية لا تسمح لهم بالانجراف في أتون حرب مكلفة مع دولة فتية مثل دولة الآق قوينلو ، ولهذا وكبادرة تعبر عن حسن نيتهم أطلق المماليك سراح أميري الحج العراقي بعد عدة أشهر من أعتقالهما (٣٢) ، وبالمقابل وجد حسن الطويل في هذه المبادرة المملوكية فرصة لتحسين علاقته مع المماليك ، لاسيما أنه هو الآخر كان بحاجة لها بعد هزيمته القاسية على يد العثمانيين في معركة تراجان سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م وتخوفه من التقارب العثماني المملوكي من أن يكون موجها ضده (٣٤) ، وكذلك من أن يستغل المماليك التمرد الذي حدث ضده والذي قاده ولداه أوغرلو محمد ومقصود بيك حاكم بغداد سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م ولجوء أوغروا محمد الى بلاد الشام طلبا للمساعدة ، ولهذا أرسل حسن الطويل في محرم سنة ٨٧٩هـ/١٤٧٤م قاصدا الى القاهرة يحمل اعتذاره عما بدر منه من تحرشات بأراضي الدولة المملوكية فقبل السلطان اعتذاره ، وتأكيدا بحسن النية رفض السلطان المملوكي تقديم المساعدة لاوغلو محمد وشقيقه مقصود بيك حاكم بغداد ، فأظطر الاثنان الى

الهرب الى بلاد ايران (٣٧) ،لتنتهي حركتهما التي كان بامكان المماليك استغلالها لمصلحتهم .

ثالثا اظطراب الأحوال في العراق والهجوم المملوكي :

توفي حسن الطويل سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م (٣٨) ، فتولى الحكم من بعده ولده خليل ميرزا حاكم شيراز سابقا ، ويبدو أن تولي خليل العرش أثار ردود فعل سريعة بين ابناء حسن الطويل وأقاربهم بسبب ضعف الأمير خليل وفساد ادارته وسوء سيرته ، وكان السلطان خليل قد ابتدأ عهده بقتل أخيه مقصود بيك حاكم بغداد الذي كان قد هرب الى بلاد ايران ، تكما فتك بعدد آخر من مناوئيه ومعارضي سلطته (٣٩) الأمر الذي دفع اقرباؤه من المعارضين الى مبايعة أخيه يعقوب على السلطة ، فانقسمت العائلة الحاكمة على نفسها لتنتهي بصراع الأخوين في معركة دارت بينهما على نهر خوى عرفت بمعركة مرند انتهت بسقوط خليل قتيلا في ساحة المعركة ، وذلك في ١٤ ربيع الثاني ٨٨٣هـ/١٤٧٨م (٤٠) .

ومما لاشك فيه أن هذا الصراع قد ترك ظلاله على أوضاع العراق الذي كان يعد من أهم ولايات الآق قوينلو ، ويمكن ملاحظة ذلك من كثرة التغيرات التي جرت على حكومة بغداد ،أذ تشير بعض المصادر الى استبدال خمسة حكام خلال فترة الصراع بين السلطان خليل وأخيه يعقوب ، أي بين سنة ٨٨٢-٨٨٣هـ/١٤٧٧-١٤٧٨م(٤١) ، وقد أفسحت هذه التغيرات والاضطرابات السياسية لامارة الآق قوينلو المجال للمشعشعين – الذين كانت امارتهم العربية قد اتسعت كثيرا في جنوب العراق وجنوب غرب بلاد ايران – فشنوا غارات مدمرة على مناطق نفوذ الآق قوينلوا في العراق شملت الحلة وأطراف بغداد وحدث ذلك عندما قاد المولى محسن المشعشعي في ١٩ جمادى الآخرة سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م هجوما على الحلة وأطراف بغداد ، كما اجتاح

ديالى والخالص منزلا في أهلها القتل والنهب مدة ثمانية أيام عـــاد بعدهـــا الـــى جنوب العراق (٤٢) .

وفي غضون ذلك كان المماليك يراقبون عن كثب التطورات الحاصلـــة في العراق ، فوجدوا أن التدهور الناجم عن كثرة التغيـــيرات الحاصلـــة علـــى حكومة بغداد ، ونجاحج غارات المشعشعين ، واختلاف عسكر الآ قوينلو علـــى السلطان يعقوب تعد فرصة مؤاتية على ما بدا لهم لتحرير العراق ، وهـــذا مـــا أكدته تقارير عيونهم ومنها ما قاله أحد جواسيسهم المنتشرين في العـــراق فـــي تقرير رفعه الى السلطات المملوكية وجاء فيه أن مملكة الآق قوينلو " ســلئبة وان العسكر مختلف على – السلطان – يعقوب ومتى حاربونـــهم لا يقـــدروا علـــى محاربتكم ويسلموكم مملكة العراق قاطبة " (٤٣) .

وهكذا فقد أصدر السلطان المملوكي قاينباي أوامره الـــى كبـــير قـــواده الامير يشبك الدويدار لقيادة الحملة التي أعدهـــا والبالغـــة عشـــرة آلاف مقـــاتل وخصص لنفقاتها أكثر من مائة الف دينار ، فكانت مهمتها التوجه نحـــو مدينـــة الرها سنة ٨٥٥هـــ/ ١٤٨٠م كهدف أولي تنطلق بعده الى تحرير العراق (٤٤).

لقد زحف الأمير يشبك نحو الرها وفرض عليها حصارا قاسيا ورفـــض اية مفاوضات حول فك الحصار وأصر علـــى استســـلام المدينـــة ، والا فانـــه سيأخذها قسرا وازاء ذلك عمد حاكم المدينة الآق قوينلوية الأمير بـــابندر الـــى اتباع خطة عسكرية تقضي بالانتحام مع الجيـــش المملوكـــي خـــارج المدينـــة وغرضه من ذلك ارباك تلك القوات التي لايتوقعون بروزها كقوة مهاجمة ، وقـــد حققت تلك الخطة هدفها في معركة فقد فيها المماليك معظم جندهم كما وقع مـــن خيرة قادتهم في الأسر وفي مقدمتهم الامير يشبك نفسه ونـــواب الشـــام وحلـــب وحماة (٤٥) ، ويقول المؤرخ المصري المعاصر للحدث أبن ايـــاس أن بـــايندر أمر بقتل الامير يشبك في اليوم الثالث من الاسر " بعث اليه بعبد اسود من عبيـــد

التركمان فقطع رأسه تحت جنح الليل " وأرسل رأسه الى سيده السلطان يعقوب بن حسن الطويل مع بقية الاسرى (٤٦) .

ولقد ألحقت معركة الرها ضربة قاصمة للمؤسسة العسكرية المملوكية وهي على حد وصف أبن اياس لها " كانت مصيبة عظيمة مهولة قل أن يقع مثلها لعسكر مصر ...) (٤٧) ، كما انها خيبت آمال المماليك في مد نفوذهم باتجاه العراق وأن ما يقال من أن السلطان المملوكي بعد سماعه بالهزيمة أمر بالتهيؤ لقيادة حملة عسكرية بنفسه ضد الآق قوينلو وطردوهم من العراق (٤٨) لم يكن الا ذرا للرماد في العيون واخفاء لعظمة المصيبة التي حلت بهم ، ولعل ما يعزز هذا الرأي استقبال السلطان المملوكي للوفد الذي أرسله السلطان يعقوب ليخبره بأنه قرر اطلاق سراح الاسرى ولما "سمع السلطان بهذا الخبر سر به جدا " وأرسل مع الوفد الهدايا الثمينة للسلطان يعقوب (٤٩) وبذلك خف التوتر بين الدولتين .

رابعا موقف المماليك من الصراع الآق قوينلوي – الصفوي :

لقد تحسنت العلاقات بين المماليك والآق قوينلوبعد سفارة السلطان يعقوب سنة ٨٨٥هـ/١٤٨٠م ، وأشار بعض المصادر الى أن السلطان يعقوب أرسل ثلاث سفارات الى مصر خلال سنوات ٨٨٩هـ/١٤٨٤م و٨٩٢هـ/١٤٨٦م و ٨٩٦/١٤٩٠م وجميعها تؤكد ودية العلاقة مع مصر (٥٠) ، تلك العلاقة التي استمرت بعد وفاة السلطان يعقوب سنة ٨٩٦هـ/١٤٩٠م ، وحتى سقوط دولة الآق قوينلو على يد الصفويين سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م فالمماليك لم يقوموا بأي تحرك عسكري أو سياسي لاستغلال اضطراب أوضاع الآق قوينلو بعد الصراع الذي نشب بين أبناء السلطان يعقوب باي سنقر ومسيح مبرزا (٥١) ، ويعزى ذلك على ما يبدو الى تخوف المماليك من تزايد الخطر العثماني وتهديدهم المباشر لهم .

وكانت نهاية المطاف في العلاقة بين الدولتين استنجاد حاكم بغداد مـــراد ابن يعقوب بالمماليك ، فقد أرسل مبعوثا عنه الى القاهرة في ٩ رمضـــان ســنة ٩١٤هـــ١٥٠٨م يطلب العون منهم ضد الشاه اسماعيل الصفوي وعلىالرغم من أن السلطان المملوكي قانصوه الغوري اكرم المبعوث وأحسن اليه ، الا أنه لـــم يستجب لطلبه بسبب ظروف مصر المملوكية التي كانت يومئذ ســيئة للغايــة ، فالسلطان قانصوه كان في ورطة كبرى منذ أن علم بوصول الأسطول البرتغـالي الى المياه الجنوبية وقطعه الطرق على التجارة الشرقية التي كانت تمنح حكومــة القاهرة دخلا سنويا كبيرا وهو في الوقت الذي كان معنيا اكثر بأمر البرتغـــاليين والعثمانيين (٥٢) ، لم يقدر حقيقة الخطر الصفوي على العراق حق قدره .

وأمام هذا الاخفاق في الحصول على مساعدة المملـــاليك فضـل مـــراد يعقوب الالتجاء الى بلاط السلطان العثماني ليقيم هناك (٥٣) تاركا أمـــر بغـداد وتقرير مصيرها لنائبه الامير باريك الذي لم يظهر رغبة جـــادة فـــي مقاومـــة الحملة الصفوية المتجهة نحو بغداد والتي كانت بقيادة حسين بيك لاله لذلك هرب نحو بلاد الشام تاركا بغداد تواجه مصيرا قاسيا على يد الصفويين الذين احتلوهـا سنة ٩١٤هـ/١٥٠٨م (٥٤) ، وبهذا الاحتلال طويت صفحـــة العلاقـات الآق قوينلوية المملوكية .

خامسا العلاقات المملوكية الصفوية وانهيار الدولة المملوكية :

لقد اعتمدت الدولة الصفوية منذ بداية نشأتها على يـــد اســماعيل الأول الصفوي (٩٠٧-٩٣٠هـ /١٥٠١-١٥٢٤م) مطلع القرن العاشـــر الـهجري / السادس عشر الميلادي على سياسة توسعية كان لها أثـــر كبـير فـــي احـداث تطورات سياسية في منطقة المشـــرق العربـــي والاســلامي ، حيـث أخضـــع الصفويين مناطق نفوذ دولة الآق قوينلو في بلاد ايران والعراق ، كما أخضعـــوا امارة ذلغادر – الواقعة على الحدود المشتركة بين كل مـــن الدولـــة المملوكيـــة

والعثمانية والصفوية (٥٦) وقد أخافت هذه السياسة دولة المماليك في مصر وبلاد الشام التي أخذت تتحسب لاطماعهم لاسيما بعد احتلالهم العراق واكتشافهم في جمادى الأولى سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م لمحاولة الشاه اسماعيل التحالف مع البنادقة لاسقاط الدولة المملوكية بهدف اقتسامها بموجب خطة يقوم الصفويين فيها بمهاجمة هذه الدولة من جهة العراق ، على أن يقوم البنادقة لمهاجمتها من جهة البحر (٥٧) .

أن وصول طلائع الجيوش الصفوية الى حدود بلاد الشام سنة ٩١٦هـ/١٥١٠م ، وانتشار الاشاعات بأنها في طريقها للدخول الى البلاد (٥٨)، وسوء استقبال الشاه اسماعيل لمبعوث السلطان المملوكي وجواب الشاه للسلطان الذي حمله المبعوث الصفوي في العام نفسه (٥٩) ، كلها أسباب سوغت هذا الخوف ودعت السلطان المملوكي قانصوه الغوري في الوقوف على الحياد في المواجهة العثمانية الصفوية التي انتصر فيها العثمانيون بقيادة السلطان سليم الأول على الشاه اسماعيل الصفوي في معركة جالديران سنة ٩٢٠هـ/١٥١٤م (٦٠) .

ومع أن شوكة الصفويين قد كسرت في جالديران ، ولكن هذه النتيجة أخافت المماليك من أن يختل ميزان القوى في المنطقة لصالح العثمانيين ، ولهذا السبب حسن السلطان المملوكي قانصوه الغوري علاقته مع الشاه اسماعيل الصفوي ، وهذا ما أشار اليه النهروالي قائلا "كان بينه وبين الشاه محبة ومودة ومراسلات (٦١) .

وقد أرسل قانصوه الغوري مبعوثا الى الشاه اسماعيل الصفوي بصورة سرية سنة ٩٢٢هـ/ ١٥١٦م يحثه فيها على التعاون ضد العثمانيين (٦٢) خاصة بعد أن استفحل الخطر العثماني على الحدود الشمالية الشرقية للدولة المملوكية في اعقاب معركة قره غين دده الواقعة في جنوب ماردين سنة

٩٢٢هـ/١٥١٦م التي كان من نتائجها انتزاع العثمانيين أقليم بلاد الجزيرة الفراتية وشمال العراق بما فيه مدينة الموصل التي هي قاعدة هذا الاقليم من الصفويين (٦٣) .

وتنفيذا لهذا التعاون تحرك الجيش المملوكي الى بلاد الشام سنة ٩٢٢هـ/١٥١٦م على أثر ما أشيع من تجهيز السلطان العثماني سليم الاول حملة جديدة ضد الدولة الصفوية في هذا العام (٦٤) ، وكان هدف المماليك من هذا التحرك ايضا هو التحسب من أن يستهدف العثمانيين بلاد الشام بدلا من الصفويين .

وعلى ما يبدو أن هذه الاتصالات والتحركات المملوكية الصفوية قد أثارت نخاوف الدولة العثمانية ، وكانت أحد الآسباب المؤدية الى معركة مرج دابق قرب حلب والتي نشبت في يوم الأحد ١٥رجب ٩٢٢هـ/٢٤آب ١٥١٦م بين السلطان سليم الأول وقانصوه الغوري حيث خر الغوري صريعا في ساحة المعركة وكان ذلك مقدمة لانهيار الدولة المملوكية التي لم يقدم لها الصفويين أي اسناد فيها، اذ اكتسح السلطان سليم بلاد الشام (٦٦) ، في حين عادت فلول المماليك الى عاصمتها القاهرة ، وقد نصبوا عليهم سلطانا جديدا هو طومان باي) (٦٧) الذي سعى لتكوين جيش مملوكي جديد يواجه به الزحف العثماني السريع على القاهرة (٦٨) فقد جمع جيشه عند منطقة الريدانية خارج القاهرة (٦٩) للتصدي للعثمانيين ، وفي المواجهة التي وقعت يوم خامس عشر رجب سنة ٩٢٢هـ /٢٢ كانون الثاني ١٥١٧م سحق المماليك خلال نهار واحد ، وهرب طومان باي وهلك الآف من جنده ودخل الجيش العثماني القاهرة بعد ثلاثة أيام من هذه المعركة (٧٠) ، أما طومان باي فقد القي القبض عليه بعد نضال ضد العثمانيين وأعدم في ١١ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ/٢٣نيسان ١٥١٣م، واعدامه كان نهاية للدولة المملوكية .

المصادر :

(١) الغياثي ،عبد الله بن فتح الله البغدادي : التاريخ الغياثي ، تحقيق : طارق نافع الحمداني، مطبعة أسعد ، بغداد ١٩٧٥، ص٣٧٢. القرماني ،ابو العباس احمد بن يوسف الدمشقي : أخبار الدول وآثار الدول في التاريخ ،عالم الكتب ، بيروت ،ص٣٣٦ .لين بول،ستانلي : تاريخ الدول الاسلامية ومعجم الاسرات الحاكمة ، ترجمة : احمد السعيد ، دار المعارف بمصر ١٩٧٢ ،ص٥٣٨.

(٢) علي ،شاكر علي : الموصل في عهد سيطرة دولتي الخروف الأسود والخروف الأبيض ، موسوعة الموصل الحضارية ، جامعة الموصل ١٩٩٢م ٢ص٢١٨ .

Kafes Oglu , Ibrahim : Kara Koyunlu Devet in ((Turk Dunyesiel Kilabi .T.K.A.E , yayinlarl , 45)) P, 884.
Roemer ,H.R : The Turkmen Dynadties in The eam bridge History of Iran , Cambridge , 1986 "rd , 6 , PP, 152 – 153 .

(٣) مجهول ، مؤرخ شامي : حوليات دمشقية ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٨ ،ص ١٤٥ –١٤٦. الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص ٣٧٢ .

Encyclopaedia of islam " New Edition " .S .V.AK Koyunlu , Vol , IP , 3II .

(٤) أبن حجر العسقلاني ، احمد بن علي : أنباء الغمر بأنباء العمر ، تحقيق : حسن حبشي ، القاهرة ج٣ ص١٧٠.

(٥) كانت العلاقات المملوكية البندقية ودية بحكم المصالح التجارية ، اذ يشير نعيم زكي فهمي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب " أواخر العصور الوسطى " القاهرة ، ١٩٧٣م ،ص٢٨–٢٩ أن البنادقة كانوا يدفعون الجزية للمماليك .

(٦) أبن حجر : أنباء الغمر ، ج٣ ص٤٢١-٤٢٢ . مجهول : حوليات دمشقية ، ص١٤٧ .

(٧) المقريزي ،تقي الدين احمد بن علي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، قام بنشره : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤١، ج٤ ق٢ ص١٨١ .أبن تغرى بردى ، جمال الدين أبي المحاسن يوسف : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتب المصرية ،ج١٤ ص٣٣٠-٣٣٢ .

(٨) أبن حجر : أنباء الغمر ،ج٣ ص٥٣٩ .أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٥ ص٤٧ .طرخان ، ابراهيم علي : مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠م ،ص١٢١-١٢٣ .

(٩) المقريزي : السلوك ،ج٤ ق٢ ص٩١٧ .أبن حجر : أنباء الغمر ،ج٣ ص٥١٩ .

(١٠) المقريزي : السلوك ، ج٤ ق٢ ص٩٥٦،٩٦٣ . أبن حجر : أنباء الغمر ، ج٣ ص٥٤٢-٥٤٤ .

(١١) أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٥ ص٦٣-٦٤ . مجهول : حوليات دمشقية ، ص١٤٥ .

(١٢) عاشق باشازراده : تواريخ آل عثمان ، استنبول ، ١٣٣٢هـ ، ص٢٤٧ .

(١٣) أبن تغرى بردى : حوادث الدهور في معرفة الأيام والشهور ، تحقيق : وليم بوبر ، جامعة كاليفورنيا ، ١٩٣٠م ، ج١ ص١٠٣ .السخاوي ، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن :التبر المسبوك في ذيل السلوك ، مكتبة الكليات الأزهرية ، القاهرة ، ص٣٤٥ .

(١٤) أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص٧٠ .

(١٥) أبن تغرى بردى : حوادث الدهور ، ج٣ ص٤٨٦-٤٨٧ .

(١٦) المصدر نفسه ج٣ ص٤٣٤ .

(١٧) أبن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٦ ص٢٨٨ .

(١٨) عن معركة موش ومقتل جهانشماه وانهيار دولة القره قوينلو على يد حسن الطويل .أنظر : ابو بكر الطهراني : ديار بكرية ، تصحيح : نجاه لوغال وفاروق سومر ، انقرة ١٩٦٢م ، ج٢ ص٢٣٨، ٣٣٨، ٤٥٧-٤٥٨ . قداوي ، علاء محمود : العراق في القرن التاسع الهجري /التاسع عشر الميلادي ، رسالة دكتوراه غير منشورة ،مقدمة الى عمادة كلية الآداب ، جامعة الموصل ١٩٩٣ ،ص١٩٢-٢٠٤ .

(١٩) لمزيد من التفاصيل عن توسع امارة الاق قوينلة وانهيار الدولة التيمورية ، أنظر : قداوي : العراق في القرن التاسع الهجري ، ص١٩٨-٢٠٤ .

(٢٠) عن محاولة حسن الطويل ايجاد منفذ له على البحر المتوسط وفشله في ذلك ، أنظر التفاصيل : أبن تغرى بردى : حوادث الدهور ، ج٣ ،ص٤٠٨، ٤٨٨ .دائرة المعارف الاسلامية ، مادة أوزون حسن ، م ٦ ص١٤١ .

(٢١) أبن تغرى بردى :حوادث الدهور ، ج٣ ص٥٠٨ .

(٢٢) أبن أياس ،محمد بن احمد الحنفي : بدائع الزهور في وقائع الدهور ، مطبعة بولاق بمصر ، ج٢ ص١٠٣ .

(٢٣) المصدر نفسه ، ج٢ ص١٠٦ .

(٢٤) المصدر نفسه ، ج٢ ص١٢٣ .

(٢٥) امارة ذي الغادر من الامارات التي عاصرت دولة المماليك ، تقع شـــرق ايناضول وعاصمتها الابلستين واشهر حكامها شاه سوار ، للتفـاصيل أنظر : طرخان ، ابراهيم علي : مصر في عصر دولـــة المـــاليك الجراكسة ، القاهرة ١٩٦٠م ، ص١١٧ .

(٢٦) الصيرفي ، علي بن داؤد الجوهري : أنباء الهصر بأنباء العصر ، تحقيـق : حسن الحبشي ، دار الفكر العربي ، ١٩٧٠م ، ص٢١٩ ،٢٤٨ .

(٢٧) أبن أياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص١٤٠ .

(٢٨) المصدر نفسه ، ج٢ ص١٤٠-١٤١ .

(٢٩) المصدر نفسه ، ج٢ ص١٤٥-١٤٦ .

(٣٠) المصدر نفسه والصفحة . السخاوي : الذيل التـــام علـــى دول الاســـلام ، تحقيق : احمد عبد الله الحسو ، رسالة ماجستير مقدمة الـــى جامعـــة عين شمس ١٩٦٨م ، ص٢١٤ .

(٣١) أبن أياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص١٤١ .

(٣٣) الجواهري ، عماد : صراع القوى السياســـية فـــي المشـــرق العربـــي ، منشورات جامعة القادسية ، ١٩٩٠م ص٤٣ .

(٣٤) عن هذا التقارب ، أنظر : أبن أياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص١٤٤ .

(٣٥) عن هذا التمرد ، أنظر : مرتضى افندي ، نظمي زاده : كلشن خلفا ، نقلـه الى العربية : موسى كاظم نـــورس ، منشـــورات المجمـــع العلمـــي العراقي ، ٢٤٩٩ .

(٣٦) أبن أياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص١٥٩ .

(٣٧) غفارى ، القاضي احمد بن محمد بن عبد الغفـــور : تـــاريخ جـــهان أرا كتابفروشي ، حافظ ، طهران ، ص٢٥٣ . البدليسي ، شرف خـــان : شرفنامه ، ترجمة : محمد علي عون ، دار احياء الكتـــب العربيـــة ،

ص ١٠٧ . العزاوي ، عباس : تاريخ العراق بين احتلالين ، مطبعة بغداد ، ص٢٤١ .

(٣٨) الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص٣٩١ .

(٣٩) الغفاري : تاريخ جهان أرا ، ص٢٥٣ . مرتضى افندي : كلش خلفا ، ص٢٤٩ . الجواهري : صراع القوى ، ص٣٢ .

Kafes Olglu : Kara Koyunlu , P , 884 .

(٤٠) الجواهري : صراع القوى ، ص٣٣ .

(٤١) أنظر : الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص٣٩٠ . قداوي : العراق في القرن التاسع الهجري ، ص٢٠٧-٢٠٨ .

(٤٢) الغياثي : التاريخ الغياثي ، ص٣٩٤ . أشتور . أ : التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى ، ترجمة : عبد الهادي عبلة ، دار قتيبة ، دمشق ١٩٨٥م ، ص٣٥٠-٣٥١ .

(٤٣) أبن أياس : بدائع الزهور ،ج٢ ص١٩٥-١٩٨ .السخاوي : الذيل النسام ، ص٢٦٦ .

(٤٤) أبن أياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص١٩٥-١٩٨ .

(٤٥) للاطلاع بشكل مفصل على هذه المعركة ، انظر : أبن أياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص١٩٨-١٩٩ . البدليسي : شوفنامه ، ج٢ ص١٠٩ .الصيرفي : انباء الهصر ، ص٥٠٧-٥٠٨ . الجواهري : صراع القوى ،ص ٣٩-٤٢ .

(٤٦) أبن أياس : بدائع الزهور ،ج٢ ص١٩٨-١٩٩ . الجواهري : صراع القوى ، ص٤٢ .

(٤٧) أبن أياس : بدائع الزهور ، ج٢ ص١٩٩ .

(٤٨) المصدر نفسه ، ج٢ ص٢٠١ .

(٤٩) المصدر نفسه ، ج٢ ص٢١٠ . السخاوي :الذيل التام ، ص٣٨١ .

(٥٠) أبن طولون ، شمس الدين محمد : مفاكهة الخلان في حوادث الزمان ، تحقيق : محمد مصطفى ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٤ ق١ ص٨٠، ١٣٥ .السخاوي : الذيل التام ص٣٦١ .

(٥١) عن الصراع بين السلطان يعقوب ، أنظر : أبن طولون : مفاكهة الخلان ، ق١ ص١٣٧ .مرتضى أفندي : كلشن خلفا ، ص١٧٨-١٧٩ .

(٥٢) الحمداني ، طارق نافع : علاقة المماليك المصريين بالدولتين الصفوية والعثمانية في مطلع القرن السادس عشر ، المجلة العربية للعلوم الانسانية ، جامعة الكويت ، العدد السابع عشر ، المجلد الخامس ، ١٩٨٥م ، ص١٥٦ . دارج ، احمد السيد : المماليك والفرنجة في القرن ٩هـ /١٥م ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، ١٩٦١م ، ص١٢٧.

(٥٣) لونكرك ، ستيفن هيمسلي : أربعة قرون من تاريخ العراق الحديث ، ترجمة : جعفر الخياط ، ط٦، منشورات مكتبة اليقظة العربية ، بغداد ، ١٩٨٥م ،ص٣١ .

Romer , H , R : The Turkmen Dynasties , in The eambridge History of Iran , 1986 , VOI , 6 , P , 183 .

(٥٤) أبن أياس : المختار من بدائه الزهور ، ج٧ ص٧٧٤ . البدليسي : الشرفنامة ، ج٢ ص١٢٨ . القهواتي ، حسين محمد : العراق بين الاحتلالين العثمانيين الاول والثاني ، رسالة ماجستير غير منشورة ، مقدمة الى كلية الاداب ، جامعة بغداد ، ١٩٧٥م ، ص٤٣-٤٧ . لونكرك : اربعة قرون ،ص٣١ .

(٥٥) عن نشأة الدولة الصفوية ومؤسسها اسماعيل الاول الصفوي ، ةانظر : جمعة ،بديع واحمد الخولي : تاريخ الصفويين وحضارتهم ، دار

الرائد العربي ، ج١ ص٢٨-٣١ . دائرة المعارف الاسلامية ، مادة اسماعيل الاول ، م٢ ص١٧٥ .

(٥٦) الحمداني : علاقات المماليك ، ص١٥٦ .

(٥٧) أبن أياس : المختار من بدائع الزهور ، ج٧ ص٨٠٣ ،٨٠٤ . نوار ، عبد العزيز سليمان : الشعومب الاسلامية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٣م ، ص٧١ . دارج : المماليك والفرنجة ، ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٥٨) أبن أياس : المختار من بدائع الزهور ، ج٧ ص٧٩٩ .

(٥٩) الحمداني : علاقات المماليك ، ص١٥٧ .

(٦٠) الجميل ، سيار كوكب علي : تكوين العرب الحديث ، منشورات جامعة الموصل ، ١٩٩١م ، ص٦٤-٦٥ .

(٦١) النهروالي ، قطب الدين محمد بن احمد :كتاب الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق : فيردناند ويستفلد ، بيروت ١٩٦٤م ، ص٢٧٧ .

(٦٢) الحمداني : علاقات المماليك ، ص١٥٩ . نوار : الشعوب الاسلامية ، ص٨٦ .

(٦٣) علي ، علي شاكر : ولاية الموصل في القرن السادس عشر ، رسالة دكتوراه غير منشورة مقدمة الى عمادة كلية الاداب ، جامعة الموصل ، ١٩٩٢ ، ص٤٨-٥٢ . الجميل : تكوين العرب ، ص٦٧-٦٩ .

(٦٤) أبن أياس : المختار من بدائع الزهور ، ج٧ ص٧٩٩ .

(٦٥) المصدر نفسه ، ج٩ ص١٠٢٨-١٠٢٩ .

(٦٦) المصدر نفسه ، ج٩ ص١٠٣١ ، ج١٠ ص١٠٤٩ .

(٦٧) المصدر نفسه ، ج٩ ص١٠٣٨ ، ج١٠ ص١٠٤٩-١٠٥١ .

(٦٨) المصدر نفسه ، ج١٠ ص١٠٥٣ ،١٠٥٩-١٠٦١ ، ١٠٦٧-١٠٦٨ .

(٦٩) المصدر نفسه ، ج١٠ ص١٠٧١-١٠٧٣ .

(٧٠) المصدر نفسه ، ج١٠ ص١٠٧٦-١٠٧٧ .

(٧١) المصدر نفسه ، ج١٠ ص١٠٨١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ .